



من نافلة القول إن النظام السوري يخوض الصراع وعيته على الماضي، لا المستقبل. كل ما يعني بشار الأسد وأنصاره هو إعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل الثورة (الماضي) وتأييده. وعلى خلافه، يهتم السوريون وأشقاءهم العرب بمستقبل سورية ما بعد الأزمة. وبينما يفسر علم الجيوبيولتيك المناورات الأهمية والدولية والإقليمية الجارية من حول الأزمة السورية، تمكن استراتيجية "الاقتراب غير المباشر" السوريين من تحسّن واقع الأزمة الراهن، وفهم معاركه المستعرة.

وإذ يقوم التحليل الجيوبيوليكي، في العموم، على تجاهل الحدود لصالح التركيز على حقائق الجغرافيا الأزلية، فإن الحاجة إلى تجاهل الحدود في الحالة السورية تزداد، بسبب التعسفية التي تم بها رسم حدود الكيان الوليد في مطلع العقد الثالث من القرن الماضي.

تمثل سورية القلب الجيوسياسي لمنطقة الهلال الخصيب؛ فهي تتوسط الطرق بين المراكز الجيوسياسية الكبرى في الشرق الأوسط. هذه المراكز، هي: هضبنا فارس والأناضول، صحراء نجد، بلاد ما بين النهرين، ووادي النيل. تاريخياً، شكلت بلاد الشام (بما فيها سورية ولبنان وفلسطين والأردن) مسرحاً لصراعات القوى التي سيطرت على تلك المراكز. ولا يختلف اليوم عن الأمس كثيراً. فإيران وتركيا وال السعودية، مدعومةً بغالبية دول الخليج العربي، وفي مقدمتها قطر ومصر، هي الأطراف الإقليمية المؤثرة في الأزمة السورية، ولو بدرجات متفاوتة. ونظراً لتحولها إلى ساحة صراع داخلي وإقليمي، عقب انهيار نظام صدام حسين، فإن دولة العراق غدت متفرجةً على الأزمة في جارتها الغربية، محظوظاً باملاعها التقليدي منذ فجر التاريخ، بل إن هذه الدولة (العراق) باتت ممراً لإسقاط قوة أحد المراكز الجيوسياسية في المنطقة (إيران) إلى بلاد الشام.

وباستثناء مصر، المعزولة خلف الجدار الإسرائيلي الاصطناعي، لجميع هذه القوى اتصال بري مباشر، أو غير مباشر، مع الجغرافية السورية. ونتيجة هيمنتها على السياسات العراقية واللبنانية، فإن إيران قادرة على استعراض قوة هضبة فارس عبر الهلال الخصيب، وخصوصاً في سورية، أما تركيا فتت伺 في الهضبة الأنضولية المركزية المتماسة مع بلاد الشام.

وتتفنن السعودية بين القوى الإقليمية الفاعلة في سوريا بميزة امتلاك مضاد صدمات (العازل الأردني)، يقيها من تداعيات الأزمة السورية، ويوفر لها (السعودية)، في الوقت نفسه، نافذة تأثير على الأزمة.

في سوريا، عدد من المحاور الجيوстрاتيجية الأساسية، أهمها الواصل بين دمشق وحلب. هذا المحور بمثابة القلب الداخلي لبلاد الشام كلها، وليس فقط سوريا. ينفتح هذا المحور بشكل كبير على المؤثرات الإقليمية عبر محورين جيوسياسيين آخرين، هما الهضبة الحلية والجسر الحوراني. تشكل الهضبة التي تتوسطها مدينة حلب، وتتووضع في القسم الشمالي من البلاد، حصنًا طبيعيًا، وهي امتداد لهضبة الأناضول في آسيا الصغرى. أما سهل حوران في القسم السوري الجنوبي، فهو أشبه بجسر يربط دمشق وما وراءها حتى حمص بالمنطقة الشمالية للأردن، وما وراءها حتى العقبة، وبدائيات شبه الجزيرة العربية.

تفصل مدینتي دمشق وحلب، اللتين تشكلان ميناءين بريين وسط الصحراء، عن البحر سلسلة جبال واقعة إلى الغرب منها (القلمون بالنسبة للأولى، والأمانوس واللاذقية بالنسبة للثانية). تخرق هذه الجبال معابر (جرود القلمون بالنسبة لدمشق ومحافظة إدلب بالنسبة لحلب) تربط المدينتين بالبحر. تشكل كل من هذه الجبال والمعابر محور جيوسياسي ثانوية، باعتبارها طرق التفاف غير مباشرة للوصول إلى قلب المدينتين. ولأن مدينة حمص تتوسط محور حلب – دمشق، فإنها تتمتع بميزة جيوسياسية رئيسية. تحتمي حمص، كما دمشق وحلب، من البحر خلف سلاسل لبنان الشرقية. واثنتان من هذه المدن الثلاث سهل (حمص ودمشق)، وتتفنن حلب بكونها متوضعة على هضبة.

تلعب طبوغرافية مدينة دمشق دوراً رئيسياً في تحديد مستقبلها. هذه المدينة الواقعة في سهل بريدي تنبسط بين جبل قاسيون والغوفة باتجاه دوما. يستحكم النظام في جبل قاسيون (لحرس الجمهوري والفرقة الرابعة مقرات أساسية على امتداد الجبل) وتواجده في جبل الرز وحي المزة 86 وعش الورور، وينذيه طريقاً دمشق – بيروت ودمشق – اللاذقية عبر حمص. في المقابل، تستحكم المعارضة في الغوفة وامتداداتها، الطوق الخارجي لدمشق. وتحتل دوماً بأحراسها، وافتتاحها على سهل حوران باتجاه الأردن (عبر العتبة)، وعلى القلمون الشرقي باتجاه الصحراء الشامية، موقع الثقل البشري والتنظيمي لهذا الطوق.

فالصراع الحقيقي على دمشق، هو الصراع بين قاسيون والغوفة على السيطرة على المدينة. يتفعل الثقل الجغرافي لجبل قاسيون نتيجة صلاته مع جبال اللاذقية، ومع شرقي لبنان عبر أوستراد دمشق بيروت. وعلى الرغم من الحصار المفروض عليها، وقطع اتصالاتها الطبيعية مع الأردن وحمص، استطاعت الغوفة المقاومة ثلاثة سنوات، وهي ستحقق الكمون الكامل لموقعها الجيوسياسي، إذا ما تمكنت من المحافظة على روابطها مع الباادية عبر الضمير، واستعادت صلاتها مع الأردن عبر العتبة، ومنعت حزب الله من السيطرة على جبال القلمون. وعندما تهاصر الغوفة من يحاصرها (النظام المستحكم في قاسيون).

تهدف المعارك المستمرة في جرود القلمون حالياً إلى إحكام الحصار المفروض على الغوفة، وتمكين إيران وحزب الله من الانتشار في المحور الجيوسياسي الالتفاقي إلى دمشق، الأمر الذي يعزز موقعهما في أي مفاوضات، ليس حول مستقبل سوريا فقط، بل ومستقبل وترتيبات لبنان أيضاً.

وبالنسبة لحوران، ليست الغوفة سوى نتوء متقدم للسهل، متصل مع العاصمة. لذلك، تحمل معارك القلمون ببساطة صفة إقليمية. وربما يكون أفضل دفاع عن عرعر السعودية هو بتأمين جرود القلمون من السيطرة الإيرانية. فإذا ما أحكم حزب الله سيطرته على الجرود، فإنه سيكون في وضع أفضل، لشن حملة على الغوفة الشرقية في يونيو/حزيران أو يوليو/تموز المقبلين. وهذا سينعكس على المعارك المستمرة في حوران ومثلث دمشق درعا القنيطرة.

يسعى حزب الله إلى تكرار سيناريو القصير، عبر معارك جرود القلمون. ومثلث معارك مدينة القصير في مايو/أيار من العام

2013 أكبر نكسة تعرضت لها الثورة السورية، لأنها سمحت لحزب الله وإيران بالتمرز على المحور الجيوسياسي الالتفافي إلى حمص، عبر سلاسل لبنان الشرقية. وكانت النتيجة إحكام الحصار على الثوار في حمص، وأخيراً، اتفاق حمص الشهير، الذي عزز مواصلات النظام في المحور الجيوسياسي لسوريا.

وتحمّر استراتيجية حزب الله العسكري في سوريا حول نظرية في التكتيك العسكري، استخلصها المؤرخ الحربي البريطاني، ليدل هارت، تؤكّد على الحسم من خلال "الاقتراب غير المباشر" من الهدف وضربه من طرق التفافية.

وتحتل حلب موقعاً ساماً في الخارطة الجيوسياسية للدولة السورية، فهي قلب الشمال السوري من دون منازع. هذه المدينة المحمية نتيجةً لموقعها على هضبة هي أغنى المدن السورية قاطبة، وأشدّها ديناميكية وانفتاحاً على المراكز الجيوسياسية الكبرى للمنطقة. فعبر الفرات، تفتح حلب على الجزيرة الشامية وما وراءها في بلاد ما بين النهرين، وعبر غازي عينتاب على الهضبة الأنضولية، وعبر ميناء اللاذقية على البحر المتوسط. وتاريخياً، كانت حلب المحطة النهاية لطريق الحرير القديم من الصين والهند عبر خراسان وفارس.

وتمسّك حلب ببعض التوازنات التاريخية لشمال سوريا، خصوصاً وبقية البلاد عموماً. وتفيد دلائل تاريخية بأن صراعات شهدتها مناطق الجزيرة أو اللاذقية أو دمشق، حسمتها مدينة حلب التي تملك القدرة على التأثير في مصير مسائل الأقليات في سوريا (الأكراد والعلويين)، والتي لا تترك تداعياتها على الأوضاع الداخلية في العراق وتركيا فحسب، بل وعلى مجمل السياسات الخارجية لهاتين الدولتين، وربما على النظام الإقليمي في المشرق العربي.

هدّدت استراتيجية النظام وإيران في "الاقتراب غير المباشر" من حلب عبر شمالها، بقطع خطوط اتصال الثوار مع تركيا. وبينما كانت محدّلة القوات النظامية الإيرانية الشيعية المتحالفّة تتقدّم في شمال حلب، كان المبعوث الأممي، ستيفان دي ميستورا، يروج خطة التجميد في مدينة حلب، والتي ستنتهي بتسليم الثوار سلاحهم للنظام.

جاء رد الثوار على محاولة النظام تطويقهم في حلب، بإتباع تكتيك "الاقتراب غير المباشر" في جسر الشغور، عندما التفوا على حلب واللاذقية من إدلب. لذلك، فإن مصير حلب واللاذقية بل وحمّة أيضاً، معلق ب مجريات المعارك المستعرة في محافظة إدلب التي تمثل، وبحق، قفل القنطرة العسكرية وسياسياً ونفسياً للأزمة السورية.

وتفيد مشاركة إيران بجيشه وميليشياتها (حزب الله اللبناني - لواء الفاطميين الأفغاني - أبو الفضل العباس العراقي)، في معارك سهل الغاب باتجاه جسر الشغور، استشعار طهران القلق على مستقبل سيطرة النظام على محور سوريا الأساسي حلب - دمشق.

بمشاركة هذه، برهنت القيادة الإيرانية أنها جاهزة لرفع الراهن؛ فإذا ما انهارت قوات الثوار في إدلب، واستحكمت القوات الإيرانية هناك، فإن إيران ستكون قد احتلت مكمّناً سيمكنها من تحديد مصير معركة حلب، بل وتهديد هضبة الأنضول نفسها، بسهولة. **ولوجود قوات إيرانية في إدلب أبعاد شديدة الخطورة على الاستقرار الداخلي في تركيا، لأن هذه المحافظة تحاذي ولاية هاتاي (لواء الأسكندرية)، حيث تقطن غالبية من العلوّيين العرب القربيّين من النظام.**

وبينما ترید إيران سد الثغرة التي نجح الثوار في فتحها من جسر الشغور باتجاه سهل الغاب، فتح الثوار معارك في الحولة (شمال غرب حمص)، مع تحضيرهم لمعارك جديدة في حلب، من أجل إنهاء هجوم النظام على المدينة. ومن نافلة القول إن استكمال الثوار سيطرتهم على حلب، إذا ما حصلت بالفعل، ستكون أهم تغيير قد تسجله الحرب السورية منذ بداياتها، فالمدينة حصن طبيعي يصعب على النظام استعادته إذا ما خسره.

هكذا تخاض على الأرض السورية معارك "اقتراب غير مباشر" عبر محاور جيوسياسية التفافية، ستقرّر مصير المحاور الجيوسياسية الرئيسية في البلاد وأدوار المراكز الجيوسياسية في المنطقة.

العربي الجديد

المصادر: